المبحث الثانى

الأفكار العلمية بشأن عوامل الجريمة

● عوامل الجريمة :

٢٧ — الحقيقة أن الأفكار العلميـــة أو النظريات العلميـــة بشأن أسباب أو عوامل الجريمة لم تبدأ الا فى القرن التاسع عشر ، وكان الرأى فى أول الأمر أن الجريمة هى وليدة نقص فى المـــخ أو مرض فى العقـــل (١) .

ولمـــا قام الفرنسى جيرى Guerry فى سنة ١٨٢٧ بدراســـة احصائية فى فرنســـا عن أثر العوامل المختلفـــة فى الجريمة اتضح له مجموعة من العوامل ضمنها كتابه الذى نشره فى ذلك الوقت ، وعاصر ذلك دراسة أخرى قام بها البلجيكى كويتلى Quetelet حيث أثبت أن السلوك الانسانى يخضـــع لنفس القوانين التى تحكم الطبيعـــة فى ظواهرها (٢) .

٢٨ — الا أن دراسة المجرم دراسة علمية بالمعنى الصحيح لم تبـــدأ الا على يد الطبيب الايطالى سيزار لمبروزو Cesare Lombroso الذى أصدر فى عام ١٨٧٦ كتابه عن الانسان المجرم ، حيث قارن بين الانسان العادى والانسان المجرم ، وخلص الى أن المجرم يختلف عن الشخص العادى فى التكوين الجسمى والوظيفى الداخلى ، ثم عـــاد

---

(١) فذهب لافاتى Lavater ، وجال Gall ، فى القرن التاسع عشر الى أن الجريمة هى وليدة خلل فى النمو الطبيعى لأجزاء المخ ، وذهب الطبيب الفرنسى موريل Morel ، ثم الطبيبان الفرنســـيان ديســـبين Despine ومورو دى تور Moreau de Tours الى أن الجريمة تعود الى تركيب معيب فى المخ ، ورأى الطبيب الايطالى جاسبارى فيرجيليو Gaspare Virgilio أن الجريمة ظاهرة مرضية كظاهرة الجنون .

راجع فى ذلك رمسيس بهنام ، علم الاجرام ، ج ١ ص ٢٦ وما بعدها .

(٢) مثل هذه الدراسات تتعلق بعوامل الجريمة بالنسبة للجريمة ذاتها لا بالنسبة للمجرم نفسه .

لمبروزو فى كتابه الذى أصدره عام ١٨٩٧ يقول ان الجريمة هى وليـدة خلل عضوى وعيب نفسانى ، ثم عاد مرة ثالثة يقول ان الجريمة ترجع الى تشنجات عصبية •

وهكذا وصف لمبروزو المجرم بأنه وحش بدائى ، ثم وصفه بأنه مجنون نفسانى ، ثم وصفه بأنه متشنج عصبى •

وكان من رأى لمبروزو أن المجرم يولد مجرما بحكم عوامل وراثية ، وأن العيوب الخلقية أو الشذوذ الخلقى يكون أكثر انتشارا بين المجرمين ، وأن هـذه العيوب كثيرا ما يصاحبها شذوذ نفسى •

واذن ففكرة لمبروزو عن المجرم بالفطرة أو المجرم بالميلاد أو المجرم المطبوع ، لم تهمل العامل النفسانى ، ولكنها فقط ربطت بين هذا العامل وبين الخصائص الجسدية التى يولد بها الانسان ، واذا كان لمبروزو قد تكلم عن عامل الوراثة فى الاجرام ، الا أنه لم يقل بحتمية هذا العامل دائما ، وانما قال انه يولد استعدادا للاجرام قد يفضى الى الجريمة حسب تأثير عوامل أخرى قد تتوافر أو لا تتوافر فى حياة الانسان •

وكان من رأى لمبروزو — بنـاء على نظريه فى الجريمة — أن مكافحة الاجرام انما تكون بتدابير استئصالية ترمى الى القضـاء على المجـرم •

٢٩ — وفى سنة ١٨٨٠ قام أحد تلامذة لمبروزو وهو رفائيـل جاروفالو Rafaele Garofalo بنظرية جديدة (٣) ينكر فيها أثر العوامل الخلقية على السلوك الاجرامى ، ويؤكـد أن هذا السلوك هو وليـد خلل نفسى ، تختل معه الدوافع النفسية ، فيقدم الانسان على العدوان على النفس أو العدوان على المـال ، وخلص من ذلك الى أن العقوبة ينبغى أن تستهدف عقاب المجرم ذاته وأن يقتصر أثرها على الردع الخاص لا الردع العام ، وأقام نظاما لرد الفعل ضد الجريمة ، فميز فيه بين أنماط مختلفة للمجرمين ، وجعل لكل نمط عقابا ، فجعل للقتل العمد

---

(٣) راجع :
Rafaele Garofalo, La Criminologie, Paris, 1905.

للحصول على المـــال عقوبة الاعدام ، أو النفى اذا كان المجرم مجنونا ، وجعل للقتل دفاعا عن الشرف تدبير تحديد الاقامة فى احـــدى الجزر لفترة غير محددة ، وجعل للقتل للدفاع الشرعى تدبير الابعاد عن المنطقة التى يوجد فيها أفراد أسرة المجنى عليه .

واقترح جاروفالو كذلك تدابير الحرمان من المهنة للمفلس بطريق التدليس وللسارق أو النصاب بطريق الصدفة(٤) .

ويرتكز فكر جاروفالو أساساً على أن هنالك مجرمين لا ســـبيل الى منع اجرامهم الا باستئصالهم وهم طائفة المجرمين الذين يستعصى توافقهم مع البيئة الاجتماعية ، وعلى أن هنالك مجرمين يمكن توافقهم مع هـــذه البيئة اذا سوعدوا على ذلك أو هيئت لهم الظروف الملائمـــة ، وهؤلاء يمكنهم الاستفادة من التدابير الاصلاحية أو الوقائية ، ومن أجل ذلك صنف جاروفالو المجرمين وجعل لكل صنف نوعا أو أنواعا من التدابير تتفق مع أحوالهم .

وكان من رأى جاروفالو أيضاً أن العوامل النفسية التى تحتم ظهور نوع معين من السلوك لا تحول أبدا دون ايقاف مفعولها وأن على المجتمع أن يسعى جاهدا لابطال هذا المفعول طالمـــا كان ذلك مستطاعا .

٣٠ ــ ومما يلاحظ أن كلا من لمبروزو وجاروفالو لم يعيرا العامل الاجتماعى أى اهتمـــام ، واذا كان جاروفالو قـــد تعرض له فلم يكن الا بصورة ثانوية غير محسوسة ، ولذلك كانت نظريتهما عن الجريمة تتعلق بالفرد ذاته منفصلا عن الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه والظروف الاجتماعية التى يتعرض لها فى حياته .

غير أن أفكارهما قد عبرت عن الفكر الوضعى الذى بدأ يظهر ضد الفكر التاقيدى أو الكلاسيكى القائم على النظرة الفلسفية .

٣١ ــ ولم تظهر أهمية العوامل الاجتماعية فى التكوين الاجرامى

---

(٤) ومن الواضح أن جاروفالو كان ينظر الى خطورة المجرم أكثر مما ينظر الى فظاعة الجريمة .

الا على يد انريكو فيرى Enrico Ferri [٥] فى ايطـاليا ، اذ وضـع الخيوط الأولى لعلم الاجتماع الجنائى ، وفيه أضاف الى النتائج التى تمخض عنها علم طبائع الانسان الاجرامى « الانتروبولوجيا الاجرامية» [٦] النتائج التى وصل اليها من الاحصـاءات الجنائية والبحوث المتعلقة بالبيئة الاجتماعية .

وقد جعل «انريكو فيرى» الجريمة حصيلة عوامل عضوية أو نفسية ، أى عوامل شخصية ، وعوامل طبيعية أو جغرافية ، وعوامل اجتماعية ، وأثبت أن الميل الاجرامى لا يولد الا كنتيجة لتفاعل أو تجاوب مثل هـذه العوامل الثلاثة بعضها مع بعض ، أى أن العوامل الشخصية لا تؤدى وحدها الى الجريمة الا اذا عاونتها عوامل طبيعية واجتماعية ، مثلها فى ذلك كمثل المادة القابلة للذوبان ، لا تذوب الا فى سائل معين ، وبتأثـير درجة حرارة معينة ، وبمعنى آخر فان الجريمة هى نتيجة حتمية لمؤثرات مختلفـة لابد عند توافرها من حدوث أثرها وهو الجريمة ، فالمجرم يعتبر مسيرا لا مخيرا ، وبهذا لا يجوز عقابه ، ولكن يجوز للمجتمع أن يدفع عن نفسـه خطورته الاجرامية ، ولا يكون ذلك الا باستبعاد ما يسمى بالمسئولية الأدبية أو الجنائية واحلال المسئولية الاجتماعية محلها .

وعلى هذا الأساس نادى « انريكو فيرى » بضرورة تعديل القوانين الجنائية تعديلا يتفق مع المسـئولية الاجتماعية التى يجب أن تحل محل المسـئولية الجنائية التى هى مناط حرية الارادة وتستلزم جزاء على ارتكاب الجريمة أى توقيع العقوبة على مرتكبها ، أما المسئولية الاجتماعية وهى مناط الارادة المسلوبة أو المقيدة فتستلزم تدبيرا يحول دون وقوع

---

(٥) وهو من تلاميذ لمبروزو أيضا ، وقد أصدر كتابه « آفاق جديدة فى قانون العقوبات والاجراءات الجنائيـة » عام ١٨٨١ ، واعاد طبعـه عام ١٩٢٩ بعـد تعديله .

(٦) راجع فى ذلك العلم :

E. A. Hooton , The American criminal an anthropological study, Cambridge, Mass Haward University Press, 1939.

الجريمة • ان العقوبة توضع كجزاء على الجريمة أما التدبير فيتخذ للوقاية من خطورة اجتماعية •

وقد كان للمدرسة الوضعية التى أوجدها انريكو فيرى ومن قبله ، آثارها البعيدة فى تغيير النظر الى العقوبة ، وفى ضرورة تفريدها بحيث تلائم حالة كل مجرم على حدة ، وفى ضرورة اتخاذها وسيلة للاصلاح ، وفى نشوء التدابير الوقائية أو الاصلاحية واتخاذها فى مواجهة الخطورة الاجتماعية ، ولو كان أصحابها من المجانين الذين لا ارادة لهم[٧] •

وأهم ما جاءت به المدرسة الوضعية أنها لم تنظر الى الجريمة باعتبارها مجرد وصف قانونى ، أو حقيقة قانونية ، أو حدث قانونى ، وانما نظرت اليها باعتبارها واقعة مادية ، أو حدثا اجتماعيا ، هو حصيلة مقدمات وأسباب معينة ، يتعين دراستها بالبحث التجريبى •

وكان فيرى — مثل جاروفالو — يرى امكان اصلاح المجرم ، ولكنه لم يتفق معه على استئصال المجرم اذا استعصى علاجه ، وذلك لأنه كان يستبعد العقوبة بصفة عامة ، وقد أطلق على التدابير التى أحلها محل العقوبة « البدائل العقابية » ، وأكد أن هذه البدائل المانعة من الاجرام ستوفر على المجتمعات الكثير من النفقات التى تنفقها على ضبط المجرم ومحاكمته وتنفيذ العقاب عليه ، واستند فى ذلك الى مفهوم أن الوقاية خير من العلاج •

وصنف فيرى التدابير التى تتفق مع أنواع المجرمين ، فجعل النفى المؤبد أو العزل غير المحدد المدة بالنسبة الى المجرم بالميلاد ، والمجرم المعتاد الذى لا يقبل الاصلاح ، وجعل الحجز الاصلاحى للمجرم بالصدفة ، وجعل التعويض الكامل عن الضرر للمجرم بالعاطفة ••• الخ •

٣٢ — وفى عام ١٨٨٩ أخرج كولايانى Colajani ، عالم الاجتماع الأمريكى ، كتابه عن علم الاجتماع الجنائى ليؤكد أن الجريمة هى وليدة

---

(٧) راجع فى ذلك رمسيس بهنام — علم الاجرام • ج ١ ص٢٩ — ٣١ •

ظروف اجتماعية فقط ، فهو لا يعترف الا بالعـــامل الاجتماعى كدافع للجريمة ، ويرى أن العنصر النفسانى ، ما هو الا وليد الظروف الاجتماعية المحيطة بالانســـان ، وأن القضاء على هـــذه الظروف هو قضاء على الاستعداد النفسى للمجرم .

وقد تأثر العلماء الأمريكيون بنظرية الدوافع الاجتماعية للجريمة ، فنشطت أبحاثهم تؤيد هـــذه النظرية ، وكان اهتمامهم منصبا أساساً على هـــذه العوامل باعتبارها هى الأساس فى توجيه الفرد نحو الجريمة[٨] .

وبهذا استبعد الأمريكيون نظرية لمبروزو تماما ، وأنكروا أن يكون للوراثة أثر فى الاجرام ، وسخروا من القول بأن للسمات الخلقية المعيبة مثل هـــذا الأثر .

٣٣ — وعلى الرغم من تأثر الكثيرين بنظرية أن العامل الاجتماعى هو الوحيد الذى يكمن وراء الجريمة[٩] ، وأن الاصلاح الاجتماعى هو الطريق للوقاية من الاجرام ، فان ذلك لم يمنع بعض المؤيدين لهـــذه

---

(٨) راجع فى ذلك :

Donald R. Taft, Ralph . W. England. Criminology, The Macmillan Comp . New York, and Collier - Macmillan Limited, London, Copyright, 1944.

(٩) فقد أخذ العلمـــاء يصيغون هـــذه النظرية صياغات مختلفة ، فيرى سلان F. Sellin أن الجريمة هى وليدة خضـــوع المجرم لنوع من الثقافة تتصل بوسطه الاجتماعى وتتعارض مع نظرة المجتمع ، بينما يعتبر كليفورد شو Clifford Shaw ان الجريمة هى من صنع مناطق منحطة فى المدن تفرخ الاجرام ، أما ساذرلاند Sutherland فيرى أن الجريمة هى وليدة تلقين وتعليم من جانب جماعة ذات وسط معين .

راجع فى ذلك :

— Clifford Shaw, Juvenile Delinpuency and Urban Area, Chicago, 1942. p. 450 - 455.

— Sutherland and Cressy, Principles of Criminology, New - York 1947, p. 70 - 80.

النظرية من أن يعيروا العامل الداخلى أيضاً أهميته ، فمن رأى مورسيلى Morselli [١٠] أن معرفة عوامل الاجرام تستلزم دراسة الظاهرة الاجرامية من جانبيها الرئيسيين الخارجى والداخلى ، ومن رأى دوركايم Durkheim [١١] أن علم الاجتماع الذى يهتم ببحث الظواهر الاجتماعية، عليه أن يهتم أيضاً بدراسة العوامل الطبيعية والعضوية والنفسية التى تعمل أثرها فى حياة الفرد وفى حياة الجماعة[١٢] .

٣٤ — وقد استمر العلماء فى تجاربهم وبحوثهم العلمية ، حتى خرج علينا فى عام ١٩٤٥ أحد أساتذة علم طبائع الانسان الاجرامى فى روما ، وهو الدكتور دى تيليو Benigno Di Tullio ، بنظرية جديدة ، هى نظرية « التكوين الاجرامى » أو « الاستعداد الاجرامى » يكشف فيها عن حقيقة كون الجريمة هى وليدة تفاعل بين عوامل خارجية اجتماعية أو طبيعية وعوامل شخصية ، غير أن الانسان لا يصلح أن يكون وعاء لهذا التفاعل الا اذا كان لديه ميل أو استعداد سابق للاجرام ، فاذا خلا الانسان من النزعة للاجرام ، فان العوامل الداخلية والخارجية لا يمكن أن تؤدى به الى ارتكاب الجريمة ، وبمعنى آخر فان الظروف المشار اليها ليست الا كاشفة لنزعة كامنة فى الانسان ، هى وليدة تكوين خاص جسمى ونفسى على السواء ، وعلى هذا الأساس يختلف الرجل العادى عن الرجل المجرم ، فالأول قد خلت نفسه من النزعة الطبيعية للجريمة ، فهو بعيد عن احتمال اندفاعه اليها بالظروف المختلفة .

وقد قسم دى تيليو ذوى النزعة الى الاجرام الى فصائل مختلفة ، تربط أفراد كل فصيلة منها سمات وخصائص نفسية أو جسمية ، وفرق بين أصناف المجرمين الذين يشتركون فى خصائص واحدة وبين المجرمين بالصدفة الذين قد يندفعون الى الجريمة بحكم ظروف طارئة

---

(١٠) وقد أخرج كتابه عام ١٨٨٩ عن علم الاجتماع الجنائى .
(١١) وقد أخرج فى عام ١٨٩٣ كتابه عن تقسيم العمل الاجتماعى .
(١٢) راجع د . مأمون سلامة ، أصول علم الاجرام ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٣ .

لا بحكم عوامل داخلية ، على أن التكوين الاجرامى كعامل داخلى لا يصل فى نظره الى حد المرض العقلى ، وهكذا فرق بين المجرمين بحكم تكوينهم الاجرامى والمجرمين بالصدفة من ناحية ، وبين المجرمين بحكم المرض العقلى أو الجنون من ناحية أخرى •

واستخلص دى تيليو من دراساته أن المجرم بحكم التكوين الاجرامى مصاب بعيوب خلقية يغلب ظهورها فيه عن الشخص العادى ، وأغلبها يتعلق بشـــكل الدماغ والجبهة ، ومصاب بعيـــوب فى افرازات الغدد الداخلية وخصوصا الغدة الدرقية ، أو مصاب بخلل فى الجهـــاز الدموى أو البولى ، أو مصاب بتسمم كثيرا ما يرجع الى الاصابة بالسل الرئوى أو بالزهرى أو الاصابة باضطراب فى الجهاز الهضمى •

غير أن هـــذه العيوب والأمراض ليست من نصيب المجرمين فقط ، ولكنها أكثر ظهورا فيهم مما هى عليـــه بالنسبة لغير المجرمين ، وهى ليست فى ذاتها سببا للاجرام ، ولكنها ذات تأثير فى تهيئة الحالة النفسية التى تؤدى الى الجريمة •

أما عن الناحية النفسية ، فقد استخلص دى تيليو أن المجرمين أكثر تعرضا لشذوذ الجانب الغريزى العاطفى ، وشذوذ غريزة الاقتناء حيث يفضى الى العدوان على المـــال ، وشذوذ الغريزة الجنسية حيث يفضى الى الاعتداء على العرض أو الفســـاد الجنسى ، وشذوذ غريزة الدفاع حيث يفضى الى الاعتداء على النفس ••• الخ •

واستخلص دى تيليو فى النهاية أن التكوين الاجرامى ، هو وليد اعتلال فى الغرائز الأساسية للانسان ، مصحوب بنقصان أو انعدام فى قوة المـــانع ومقترن بعيوب جسمية خارجية أو داخلية تسهم فى حدته •

وأوضح دى تيليو أن التكوين الاجرامى يكشف عن آثاره فى سن مبكرة ، وهو مرادف للشخصية الاجرامية فى الانســـان ، ولذلك فان دراســـة مثل هـــذه الشخصية تستلزم دراســـة العناصر الآتية :

أولا — دراسة أعضاء الجسم الخارجية لكشف حالتها الطبيعية أو غير الطبيعية ، ويتضمن ذلك معرفة الفصيلة التى ينتمى اليها الفرد محل الدراسة .

ثانيا — دراسة وظائف الأعضاء الداخلية ، أى وظائف الجهاز التنفسى ، والجهاز القلبى الدموى ، والجهاز البولى التناسلى ، والجهاز العصبى ، بما فى ذلك دراسة الغدد المختلفة وافرازاتها وأثرها فى التكوين المزاجى النفسانى للفرد وفى طاقته على العمل وعلى الرغبة فيه .

ثالثا — الدراسة النفسية ، أى دراسة الغرائز وقياس حاجاتها وذلك بجانب الدراسات الاجتماعية عن بيئة المجرم الطبيعية والاجتماعية(١٣) .

٣٥ — ومن هنا نرى أن علم الجريمة قد تنافست فيه نظريات وآراء وأفكار مختلفة ، فالبعض يعزو الجريمة الى عوامل عضوية ، أو حيوية « بيولوجية » ، أو نفسية . والبعض الآخر يعزوها الى العوامل الاجتماعية ويضيف اليها العوامل الطبيعية ، ثم نجد كلا من الجانبين يقترب من الآخر ، فمن يعزو الجريمة للعوامل الشخصية يعود فيؤكد ضرورة الاعتماد أيضاً على العوامل الاجتماعية لتفسير الاجرام ، ومن يعزوها للظروف الاجتماعية ، يعود فيؤكد ضرورة عدم اغفال العوامل الشخصية أو الفردية .

وهكذا يكاد الرأى يستقر فى النهاية على أنه لا يوجد عامل واحد أو اتجاه واحد يمكن الاعتماد عليه وحده فى تفسير ظاهرة الجريمة ، وأن السلوك الانسانى الاجرامى ما هو الا خلاصة لمجموعة عوامل فردية واجتماعية وبيئية وأن هذه العوامل تتفاعل معاً كلها أو بعضها تفاعلا يولد الشخصية الاجرامية أو الفعل الاجرامى فى النهاية .

ولا يستطيع الانسان أن يقرر على وجه اليقين أى هذه العوامل أكثر أو أقل أثراً من غيره فى التفاعل المؤدى الى الجريمة .

* * *

---

(١٣) رمسيس بهنام ، علم الاجرام ، ج ١ ص ٣٤ — ٤٠ .

● **دراســة نفسية المجرم :**

٣٦ — حتى نستطيع المقارنة بين ما جاء فى الشريعة الاســلامية وبين ما جاء فى العلم الحديث من وصف لنفسية المجرم وكيفية تصارع ونوازع الخير والشر فيها وأهليتها للاصلاح بعد فسادها ، لابد من الاشــارة بايجاز الى أهم ما توصل اليه العلم الحديث فى هــذه الناحية ، مع التسليم بأن هذه الاشــارة ليست دراســة لعلم النفس أو للاحاطة بقواعده ومفاهيمه ، انما هى فقط للتعرف ببعض جوانب النفس ذات العلاقة بموضوعنا فى المقارنة •

والدراســة النفســية تتضــمن اختبارات الذكاء والشــخصية Intelligence Tests and Projectitve techniques وذلك لقياس قدرات الشخص ومهاراته ومعارفه واتجاهاته •

وقد يتبع ذلك الفحص العقلى القائم على الملاحظة Observation أو المقــابلة Interview ، وقد يتبع أســلوب التحليــل النفسى Psychoanalysis للوصول الى أعماق النفس وفحص اللاشعور فيها •

ومقومات النفس هى التفكير والشعور والارادة •

* * *

● **التفــكير :**

٣٧ — ويدخل فى نطاق التفكير الوعى أو الادراك ، وهو ما يمكن الانســان من الاحاطة بما يجــرى فى داخل النفس وفى العــالم الخارجى عنها •

ويتصــل بالوعى ملكة الانتباه وملكة الذاكرة ، وملكة النقــد ، وملكة الحــكم على الأمور ، وملكة ترتيب الأفكار ، وملكة التصــور أو التخيل •

وقد اتضح من البحث العلمى أن الوعى أو الادراك لدى المجرمين

معيب وأن نسبة انتشار العيب فى وعيهم أو ادراكهم تزيد فى المجرمين عنها فى الأشخاص العاديين •

وكذلك اتضح أن هنالك خللا فى الملكات العقلية لدى المجرمين بقدر يجاوز ما عساه يوجد فى سائر الناس •

* * *

● **الشعور :**

٣٨ — تشتمل الناحية الشعورية فى الانسان على عنصرى الغريزة والعاطفة •

فالعنصر الغريزى يتعلق بالغرائز الأساسية فى الانسان ، والعنصر العاطفى يتعلق بانفعالاته •

وأهم الغرائز فى الانسان هى غريزة حب البقاء ، وغريزة القتال والدفاع ، وغريزة الاقتناء ، والغريزة الجنسية •

ويرى البعض أن الغريزة الأصلية هى غريزة حب البقاء ، وتنقسم الى غريزتين أساسيتين ، هما غريزة الذات المتفرعة بدورها الى غريزة القتال وغريزة الطعام ، وغريزة حب الاستطلاع ، وغريزة الاعتداد بالذات ، ثم الغريزة الجنسية المتفرعة بدورها الى غريزة الحب الشهوانى ، وغريزة الحب العائلى ، وغريزة الحب المعنوى ، وغريزة حب الجماعة ، وغريزة التضحية بالذات ، وغريزة المعاشرة •

وهنالك تقسيم آخر للغرائز الى ثلاث ، هما غريزة الذات ، والغريزة الجنسية ، والغريزة الاجتماعية •

وتنقسم غريزة الذات الى عدة غرائز فرعية ، هى غريزة الاعتداد بالذات أو السيطرة وانفعالها الزهو ، وغريزة الهرب وانفعالها الخوف ، وغريزة المقاتلة وانفعالها الغضب ، وغريزة الاستطلاع وانفعالها التعجب ، وغريزة الطعام وانفعالها الجوع ، وغريزة الاقتناء وانفعالها حب التملك • وغريزة الانشاء وانفعالها حب التكوين ، وغريزة النفور وانفعالها

الاشمئزاز ، وغريزة الاستغاثة وانفعالها العجـز ، وغريزة الخضوع وانفعالها الاستسلام .

وتنقسم الغريزة الجنسية الى غريزة التناسل وغريزة الميل الجنسى ، والغريزة الوالدية ، وغريزة العطف .

وتنقسم الغريزة الاجتماعية الى غريزة حب الجماعة وغريزة المعاشرة وانفعالهما الشعور بالوحدة .

والثابت أن هـذه الغرائز قد تصاب بافراط أو نقص أو شذوذ ، فتؤثر فى السلوك الانسانى كما أو كيفا[١٤] ويرجع الى اختلال الغرائز — على هـذه الصورة — السر فى التجاء الانسـان الى أنواع مختلفـة من السلوك الاجرامى .

٣٩ — أما العاطفة أو الانفعال ، فيقصد بها ردود الفعل المختلفة فى النفس ، أو انعكاس المثيرات المختلفة فيها ، سواء أكان ذلك بالقبول والرضا والاستحسان أو بالرفض وعدم الرضا والاستهجان .

أما العاطفة المعيبة فمثلها اضمحلال الطاقة الاحتمالية لكل قيود أو ضغوط يتعرض لها الفرد ، حتى أنه يقابل مثل هـذه الضغوط أو القيود

---

(١٤) ومثل الغرائز حين يشوبها عيب كمى — أى بالزيادة أو النقصان — غريزة حب البقاء حين تصاب بالافراط ، فيتمثل ذلك فى التمادى بالاعجاب بالنفس والاعتداد بالذات ، وحين تصـاب بالنقص ، فيتمثل ذلك فى الزهد والعزف عن ملذات الحياة ، حتى أنها قد تؤدى الى الانتحار .

وغريزة القتال أو الدفاع حين تصاب بالافراط فيندفع الانسان نحـو التهور ، وحين تصاب بالنقص فيتصف الانسان بالجبن .

ومثل الغرائز حين يشوبها عيب كيفى — أى فى طريقة ارضائها — غريزة حب البقاء حين يلجأ الانسان الى ابتكار الوسائل الشاذة لتمجيد ذاته أو اعلاء شأنها ، وغريزة القتال أو الدفاع حين يلجأ الانسان الى القتال دفاعا عن الباطل ، وغريزة حب الاقتناء حين يلجأ الانسان الى التسول ، والغريزة الجنسـية حين يلجأ الرجل الى اللواطة أو المرأة الى السحاق أو ممارسة البغاء ... الخ .

برد فعل غير طبيعى لا يلجأ اليه الرجل العادى ، وقد يكون هـذا الرد فى صورة عنف يأتيه الفرد على نفسه أو على غيره ، أو فى صورة عدوان على القانون أو النظام .

والمشاهد أن الأفراد يختلفون منذ نشأتهم فى استعدادهم للتربية والتهذيب ، أى فى استعدادهم للقيود التى تفرضها مقتضيات الحيـاة الاجتماعية عليهم ، فأحيانا ينشأ الطفل متمردا غـير قابل لأى قيود ، وأحيانا أخرى ينشأ الطفل دمث الطبع لينا قابلا للاصلاح والتطبع بالقيم الاجتماعية .

وهذا الاستعداد انما ينشأ نتيجة تفاعل غريزى وعاطفى تتحكم فيه العوامل الغريزية الداخلية فى الفرد والعوامل العاطفية المتصـلة بخارج الفرد ، فالتفاعل بين الشـعور الغريزى وبين العوامل الفكرية والثقافية يكون الوعى الخلقى للفرد .

وبقدر ما يكون هنالك من افراط فى الانفعالات العاطفية تؤدى الى التمرد على القانون والسلطة والنظام أو اتيان العنف على الشخص ذاته أو الغير ، أو نبذ المسئولية الأدبية أو الاجتماعية والنفور من تحملها ، فقد يكون هنالك أيضا ضمور أو انحطاط فى الانفعالات أو بلادة حسية أو انفعالية تؤدى الى الجمود والخمول وعدم الاكتراث والمبالاة بما يدور حول الانسان أو يتعرض له من قيود أو يفرض عليه من قيم ، وبذلك يضعف الوازع الخلقى لدى الفرد وتضمحل فى ذاته اعتبارات الانسانية والوطنية والفضائل الاجتماعية .

* * *

● الارادة :

٤٠ — بعد أن تكلمنا عن النشاط الفكرى والنشاط الشعورى فى النفس ، فعلينا الآن أن نقول ان خلاصة هذين النوعين من النشاط هو انعقاد الارادة أو عدم انعقادها .

فالارادة هى أهلية العزم على اتيان أمر من الأمور ، وهى لا تقوم الا حيث كانت هنالك حرية للاختيار ، واذلك فالمجنـــون لا ارادة له لانعدام حرية الاختيار لديه .

وحرية الاختيار قد تكون ناقصة أو معيبة ، ولكنها طالمـــا لم تنعدم فهنالك قدر مماثل من الارادة ، وهذا ما يحدث عادة لدى طائفة من المجرمين ، اذ يقدمون على الجريمة فى ظروف تجعل ارادتهم ناقصـــة أو معيبة .

والارادة تبدأ كفكرة ثم كرغبة ثم كعزم ، فاذا ما اتجهت للاضرار بالغير كانت الجريمة عمدية ، واذا ما اتجهت الى اتيان أمر لا يقصد به الاضرار بالغير ولكنها أضرت به كانت الجريمة غير عمدية .

٤١ — وقد أصبح ثابتا علميا أن ارادة المجرم معيبة ، لأنها وليدة خلل فى التوازن النفسى بين التفكير والشعور (١٥) .

واذا كنا نتكلم عن الدراسة النفسية فلابد من التعرض للنظرية النفسية الحديثة القائمة على التحليل النفسى ، فان مدرسة التحليـــل النفسى التى يتزعمها فرويد تفسر السلوك الاجرامى تفسيرا نفسيـــا بحتا قائما على التحليل النفسى ، بينما تتجه مدرسة علم النفس التقليدية الى تفسير هذا السلوك على أساس تغييرات فى الجهاز العصبى ، أى أن تجاربها تعنى بالناحية الوصفية للظواهر النفسيـــة لا التفســـيرية أو التحليلية التى لا شأن للأجهزة والمقاييس بها ، بل هى من خصـــائص التحليل النفسى الذى يبحث فى تحليل الطبيعة البشرية من الناحيـــة النفسية ، وذلك بتحليل الظواهر الفكرية اللاشـــعورية ، الموجودة فى العقل الباطن والوصول الى أغوار النفس ومجاهلها لاستخراج ما استقر فيها من مركبات نفسية دفينة ، وذلك بايقاظ وتنبيه الذكريات الخاصـــة

---

(١٥) يراجع فى الوعى والشعور والارادة : محمد فتحى ، علم النفس الجنائى ج ١ ، أكرم نشأت ابراهيم ، علم النفس الجنائى ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ بغـــداد .

بما مر بالفرد من حوادث عن طريق « تداعى المعانى » ثم التدرج منها الى الماضى البعيد من حادث الى حادث ومن وجدان الى وجدان ومن ذكرى الى ذكرى ، حتى الوصول الى قاع النفس وخفائها اللاشعورى ، ثم الربط بين هذا كله واستخلاص النتائج ومسبباتها .

وحتى يمكن ادراك الأساس الذى تقوم عليه مدرسة التحليل النفسى لابد لنا من دراسة بعض الجوانب الهامة فى التكوين النفسى للفرد ، وهى مراحل العملية العقلية ، والغريزة ، والشعور واللاشعور ، وطبقات النفس الثلاث .

* * *

● **مراحل العملية العقلية Aspects of Mental Process :**

٤٢ — ان سلوك الفرد ما هو الا نتيجة لانفعال أو وجدان أو تأثير معين تولد فى النفس نتيجة لادراك أمر من الأمور حسيا كان أم معنويا ، فالدافع على السلوك يبدأ أولا بمعرفة أو ادراك شىء أو أمر من الأمور ، فاذا تم الادراك أو المعرفة حدث تأثير أو انفعال نتيجة هذا الادراك أو هذه المعرفة ، فاذا حدث هذا التأثر أو الانفعال تولدت عنه رغبة أو نزوع نحو عمل شىء لجلب المنفعة أو تجنب الضرر (١٦) .

---

(١٦) ولتبسيط هذه العملية ، ننظر الى الاميبا ، وهى أبسط المخلوقات لانها تتكون من خلية واحدة ، فهى تتأثر وتنفعل بما يلامسها من المواد الخارجية ، وتختلف الانفعالات باختلاف المؤثرات ، فاذا كان المؤثر هو غذاء صالح انطوت عليه الاميبا والتهمته ، وان كان شيئا ضار انكمشت الاميبا لتدرأ عنها خطره ، ويسمى هذا السلوك المتنوع بتنوع المؤثرات « التلبية النوعية specific response » .

واذا انتقلنا بالاميبا الى مرحلة متطورة تالية ، لوجدناها قد انضمت الى مثلها وكونت حيوانا ذا خلايا متعددة ، فأصبح هذا الكائن المركب لا يحس ولا يتحرك بكل جسمه ، بل اختصت بعض خلاياه بالحس ، والبعض بالانفعال والبعض بالحركة ، وهكذا نشأ المجموع العصبى المركزى ، وبعد أن تنوعت المؤثرات بعد ذلك استدعت مضاعفة أنواع الحس والادراك والحركة لمواجهة الحياة المتطورة ، فلم تعد المنبهات تكتفى باللمس فقط ، بل بطرق مختلفة =

واذن فالعملية العقلية تتكون من ثلاث مراحل ، هى المعرفة أو الادراك Cognition ، والتأثر أو الانفعال Emotion ، والرغبة أو النزوع Conation •

والسلوك اما أن يكون مصدره العادات والميول المكتسبة بالتربية والتعليم والتحضر ، واما أن يكون مصدره الميول والاستعدادات الفطرية الموروثة عن طريق السلالات المتعاقبة للنوع •

والغرائز هى عادة الدافع على السلوك بنوعيه ، المكتسب والفطرى ، والسلوك المكتسب من مميزات الأحياء الراقية القابلة للتهذيب والتحضر عن طريق الخبرة والمران ، أما السلوك الفطرى فهو السلوك الحيوانى المحض ، واذن فالسلوك المكتسب هو فى أصله سلوك فطرى تعرض للتهذيب والتحوير عن طريق عنصرى الادراك والنزوع مع بقاء التأثر الغريزى فطريا دائما •

وعلى هذا فالغريزة هى المحور الذى يتحرك حوله عنصرا الادراك والنزوع ، فهى باقية دائما فطرية كما هى ، أما هذان العنصران فهما القابلان للتطور والتهذيب •

* * *

● الغرائز :

٤٣ — الغريزة هى استعداد فطرى موجود لدى الكائن الحى ، يجعل هذا الكائن يتأثر بمؤثرات خاصة ، فتنتبه فيه رغبات معينة ، تدعوه الى أن يسلك نوعا معينا من السلوك اما لاتقاء ضرر أو لتحقيق مصلحة له أو لنوعه عموما •

واذن فالغريزة هى مركز التأثير ، لأنها تتأثر بواسطة الادراك

= من الحس وأدى ذلك الى امتداد خيوط الحس المختلفة بين اعضاء الحس ومراكزها واعضاء الحركة ومراكزها ، فنشأ المجموع العصبى المعقد التركيب وعلى رأسه المخ .

أو المعرفة ، ثم تؤثر بدورها تأثيرا ينزع الكائن على أساسه الى اتيـــان عمل معين ، فهى تشتمل على المراحل الثلاث للعملية العقلية •

والمفهوم أن كل نوع من المؤثرات ينبه نوعا بذاته من الغرائز ، وبالتالى يؤدى الى اتيان نوع معين من السلوك يتفق مع ارضاء هـــذا النوع من الغرائز (١٧) •

وقد سبق القول بأن الغريزة فطرية بطبيعتها ، وانها باقية كذلك بغير تطور ، انما يتطور فقط بالتربية والتهذيب عنصر الادراك وعنصر النزوع ، وقد دلت سنة التطور على أن الانسان يرتقى بناء على عاملى الوراثة والبيئة ، فالعقل البشرى يشتمل على الثروة الموروثة عن أجداد الانسان ، مضافا اليها الثروة المكتسبة من تاريخ ميلاده الى يوم وفاته •

فالغريزة فى أصلها شهوة أنانية عمياء ، ترمى الى مصلحة الذات فقط ، ولكنها مع ذلك عرضة للتربية والتهذيب ، بحيث يمكن تطويعها فى ذات الوقت لمصلحة المجموع ولخدمة القيم السائدة فى المجتمع •

وقد أشرنا من قبل الى أنواع الغرائز كما يتصورها علماء النفس •

* * *

● الشعور واللاشعور Consciousness and Unconsciousness

٤٤ — من الثابت علميا أن كل خبرة يمارسها الانسان تترك فى نفسه أثرا يختلف باختلاف أهمية أو خطورة هذه الخبرة من حيث استبقائها فى الذاكرة أو نسيانها ، فعندما يذكرها يقال انها ماثلة فى

---

(١٧) فاذا وقعت العين على حيـــوان مفترس نبهت فى النفس غريزة الهرب ، فينزع الانسان الى الهرب ، واذا وقعت العين على الطعام نبهت فى النفس غريزة الطعام ، فينزع الانسان الى تناول الطعام ، واذا وقعت عين الأم على طفلها نبهت غريزة الأمومة لديها فتنزع الى احتضانه ... الخ .

الشعور ، وعندما ينساها تكون قد هبطت الى اللاشعور ، فهو لا يستطيع استعادتها الى الشعور الا بعد اجراءات نفسية معينة (١٨) .

فللانسان ذاكرة باطنة تحصى الخبرات والحوادث والخواطر والذكريات التى مرت به وتحتفظ بها للرجوع اليها .

ويطلقون على الذاكرة الباطنة أو اللاشعور كلمة « العقل الباطن » ، ويطلقون على الذاكرة الواعية أو الشعور كلمة « العقل الواعى » .

وهكذا يتضمن العقل مجالين ، الشعور واللاشعور .

ويشمل الشعور ملكات العقل التى نشعر بها وندركها ، كالتذكر والانتباه والادراك والتصور والتخيل والتمييز والقصد والسرور والخوف والألم واللذة .

والشعور قائم على مصدرين ، المصدر الأول هو البيئة التى تثير فى النفس الاحساسات والخواطر عن طريق الحس المباشر ، والمصدر الثانى هو المحفوظات الموجودة فى اللاشعور حينما يمكن استعادتها الى الشعور .

والتحليل النفسى انما يستهدف الوصول الى أعماق اللاشعور أو العقل الباطن واستخلاص محتوياته المكبوتة ودراستها حتى يمكن معرفة الأسباب الخفية للسلوك .

---

(١٨) واعادة المحفوظات الى الذاكرة قد تكون بمشيئة الانسان ذاته كما اراد ، ومثلها الأشعار والبيانات العلمية والأرقام والأوصاف وغيرها مما يستطيع أن يذكرها دون عناء ، وقد يستعصى عليه ذكرها بمشيئته وحينئذ لا يمكن استعادتها الى الشعور الا اذا تهيأت ظروف خاصة ، كالتنويم المغناطيسى او الأحلام أو الاصابة بمرض معين أو حمى أو نتيجة تداعى المعانى (ويقصد بها أن يعرض للانسان خاطر أو حادث أو خبرة فيتذكر خاطرا سابقا أو خبرة سابقة أو حادثا سابقا له علاقة بالخطر أو الخبرة أو الحادث الذى عرض له ، كمن يشم زهرة معينة فيتذكر حديقة فى عهد الصبا) .

ومن أهم ما يعيد مكنونات اللاشعور الى الذاكرة التحليل النفسى ، اذ يمكن بواسطته استعادة ذكريات العام الأول من العمر .

ونظراً لأن اللاشعور يحوى ذكريات الطفولة وذكريات الحوادث والخبرات المكبوتة والاستعدادات والميول الفطرية فانه يصبح ذا تأثير كبير على مكونات الشخصية أى على السلوك •

وبجانب الذكريات المكبوتة التى قد تعتل معها نفسية الفرد دون شعور منه ، توجد النزعات الفطرية المكبوتة التى اصطدمت مع متطلبات البيئة ولم يحسن تصعيدها فأضحت كبتا مرضيا يهدد الانسان بالأمراض العصبية والاضطرابات النفسية وباتباع السلوك المنحرف فى مستقبل حيـــاته •

* * *

● **طبقات أو مراتب النفس :**

٤٥ — يقسم فرويد النفس الى ثلاث مراتب ، تمثل كل منها مظهرا من مظاهر الحياة العقلية •

فالمرتبة الأولى يرمز اليها بالكلمة اللاتينية « I D » ، أى « هى » ، اشارة الى نفس ذات الشهوة ، وهى مخزن النزعات الغريزية الشهوانية اللاشعورية •

والمرتبة الثانية يرمز اليها بكلمة « **Ego** » أى « أنا » اشارة الى الذات الشعورية المتصلة بعالم الحس والحقيقة •

والمرتبة الثالثة يرمز اليها بكلمة « **Super Ego** » أى « أنا المثالية أو العليا » ، اشارة الى الذات المعنوية القائمة على العقائد الاجتماعية والدينية والخلقية ، أى ذات الحياة الروحانية المتعلقة بالمثل العليا •

ومن رأى فرويد أن الأنا الدنيا « هى » هى مستودع الميل والشهوات الفطرية أو الغريزية ، وهى لا تستهدف الا اللذة ، أى ارضـــاء هـــذه الشهوات ، دون التقيد بمثل أو أخلاق أو قيم •

ويرى أن « الأنا الحسية أو الشعورية » تشمل ملكات العقـــل

المهذبة بعوامل البيئة ، أى أن نشاطها هو انعكاس لمقتضيات العالم الخارجى ، وعلى ذلك فهى التى تحاول كبح جماح الأنا الدنيا وكبت شهواتها •

ولذلك فهى تجاهد للتوفيق بين متطلبات الضمير ممثلا فى الأنا العليا ، ومتطلبات الأنا الدنيا ممثلة فى شهواتها الفطرية •

وكلما استطاعت الأنا الحسية كبح جماح الأنا الدنيا ظهر الانسان قادرا على كبح شهواته ، أما اذا عجزت عن ذلك ظهر الانسان مفرطا فى ارضاء هذه الشهوات دون اعتبار لأية قيود قانونية أو خلقية •

ويرى فرويد أن الأنا العليا ، أى الذات المثالية ، تتكون من التقاليد والتعاليم والمثل الموروثة ، وكذلك من التعاليم والمثل المكتسبة عن الوالدين ، أى أنها تمثل أهم مراحل التطور فى العقل البشرى •

وتعتبر الأنا العليا مستودعا لا شعوريا للقوة الرادعة للشهوات ، وعليها تعتمد الأنا الحسية فى صد شهوات الأنا الدنيا •

وعندما تستطيع الأنا الحسية تلبية متطلبات الأنا العليا فى كبح جماح الأنا الدنيا كبحاً تاما كان هنالك الانسان المثالى النادر فى عالم السلوك (١٩) •

* * *

● الخلاصة :

٤٦ — يتضح مما سقناه فى العلم الحديث عن العملية العقلية والغرائز ومراتب النفس التشابه الكبير بين معطيات علوم الجريمة فى العصر الحديث وبين معطيات الشريعة الاسلامية منذ قرون

---

(١٩) راجع فى مراحل العملية العقلية ، والغرائز ، والشعور واللاشعور ، ومراتب النفس : محمد فتحى ، علم النفس الجنائى ، ج ١ .

وكذلك :

Freud, Sigmund, Introductory Lectures on Psychoanalysis, London, 1940.

كثيرة من الزمان ، الأمر الذى يؤكد أن علماء الشريعة الاسلامية كانوا — عند تعرضهم لمسئولية الانسان عن أفعاله — متأثرين بمثل هذه المعطيات ، حتى أنهم تكلموا فى الجبرية والقدرية ، تماما كما تكلم علماء القرن العشرين عن حتمية السلوك أو عدم حتميته نتيجة للعوامل الشخصية والبيئية التى يخضع لها الانسان بحكم تكوينه أو بحكم بيئته .

ان معطيات العلم الحديث هى أساس التطور فى النظر الى الجريمة ومسئولية المجرم عنها ، فبناء عليها ميزوا بين المجرم ذى الاستعداد الاجرامى وبين المجرم العرضى أو المجرم بالصدفة ، الذى تدفعه ظروف طارئة أو عارضة للجريمة ثم لا يلبث أن يندم عليها ويقلع عن اتيانها مرة أخرى ، وكذلك ميزوا بين هذين وبين المجرم المعتاد أو المحترف أو العائد الذى يصر على الاستمرار فى الجريمة ، وتناول الكلام قابلية المجرمين للاصلاح وكيفية تشخيص أمراضهم النفسية أو الاجتماعية وكيفية علاجها ، وضرورة تفريد العقوبة أو التدبير ليلائم حالة كل جان على حدة ، وضرورة اتخاذ العقوبة أو التدبير سبيلا للاصلاح والتقويم ، وضرورة مواجهة الخطورة الكائنة فى المجرم وقياسها بناء على أسلوب علمى للعمل على حماية المجتمع منها .

وكان لفضل العلم الحديث اظهار الرابطة بين سلوك الانسان وبين الأمراض العقلية والأمراض النفسية والظروف الطبيعية والاجتماعية مما أيقظ الأمل فى امكان اصلاح المجرمين لا عن طريق العقوبة الرادعة وحدها بل عن طريق تدابير وبرامج اصلاحية وتقويمية مختلفة أيضا ، بل ان هنالك من فئات المجرمين — كالمجرمين الأحداث — من لا يصلح معهم الا التدابير الاجتماعية وحدها بعيدا عن كل عقاب .

لقد كان لمعطيات العلم الحديث أثرها الخطير فى تطوير السياسة الجنائية فى كل بلاد العالم .

وعلى الرغم من أن علوم الجريمة لم يكتب لها القدر اللازم من الدقة الا أن العالم قد انساق وراءها بأمل التمكن من السيطرة على الاجرام الذى لم تفلح حتى الآن الحلول القائمة فى السيطرة عليه .

* * *